رواية امينة

تمهيد

لمؤلفي الروايات اسلوبان مشهوران الاول الاعتماد على ذكر الغرائب التي يتوهم العامة وقوعها ولو ثبت عند الخاصة انها ضرب من المحال كما في قصص الجان والغيلان والطلاسم والرقى ومن هذا القبيل قصة الف ليلة وليلة وكثير من الروايات الاوربية القديمة وهي تفكه القارئ غالباً ولكنها لا تفيده الاَّ بما يتخللها من تحسين الفضيلة والحث عليها وتقبيح الرذيلة والنهي عنها . وقد شاع هذا الاسلوب في السنين الغابرة ثم رغب الناس عنهُ اخيراً لانهم صاروا من طلاَّب الحقائق ولم تعُد تلذُّ لهم الاوهام التي يتسلى بها الصغار

والثاني ذكر الحوادث التي حدثت او يكون حدوثها ممكناً وهو على ضربين ضرب يتوخَّى فيهِ كاتبهُ ذكر الحوادث الماضية والثاني ذكر الحوادث الحاضرة . اما الاول فيضطر صاحبهُ ان يحرِّف التاريخ ويحوِّرهُ لكي يطابق غرضهُ ويوافق الاسلوب الذي اختارهُ لروايتهِ فلا تربح في الذهن قضية تاريخية مما ذكرهُ الاَّ وهي محرَّفة او مشوبة باُمور كثيرة لا صحة لها فتصير الذاكرة تخلط بين الحقيقة والوهم وبين المنقول والموضوع . وقد شاع هذا الاسلوب كثيراً منذ اوائل القرن الماضي ولكن عدل عنهُ اكثر الكتَّاب حديثاً لانهم وجدوا ضررهُ في تشويش الحوادث التاريخية اكثر من نفعهِ في ذكرها . والضرب الثاني وهو ذكر الحوادث الحاضرة كما هي استدراجاً الى ذكر العادات والاخلاق واستحسان الحسن منها واستهجان القبيح حديث اشتهر بهِ كثيرون من نوابغ الكتاب مثل تولستوي بالروسية وكبلنغ بالانكليزية وزولا بالفرنسوية

وبينما نحن نفكر في وضع رواية من هذا النوع الاخير اشار علينا من اشارتهُ حكم ان نترجم رواية اميرة شرقية وضعتها باللغة الانكليزية وشرحت فيها احوال اهالي الاستانة في هذا العصر وقد اشرنا الى هذه الرواية حين صدورها وطالبنا كثيرون بنقلها الى العربية فرأينا ان نلبي الطلب الآن غير مقيدين بما كتبتهُ المؤلفة بل متصرفين فيهِ حسب مقتضى الحال

الفصل الاول

لا ازال اتذكَّر اول يوم بلغت فيهِ الاستانة ونزلتُ الى البر وسمعتُ اصوات الناس وطقطقة المركبات وصفير السفن البخارية ونداء السقائين فاني لم اكن معتادةً سماع شيء من ذلك في القرية التي ربيت بها في بر الاناطول وخُيِّل لي ان القيامة قامت على ما كان يقصهُ علينا معلم

المدرسة . وكان البرد شديداً لاننا كنا في بداءة فصل الشتاء ووقع المطر فبلل ثيابي وخرق الى عظمي فدنوت من محمود وسألتهُ قائلة الى اين نحن ذاهبون فقال الى بيت جدتك . ولما رأى انهُ يتعذّر عليَّ المشي حملني على ظهرهِ وسار بي نحو ايا صوفيا

وذهلت عن نفسي بما رأيت من المناظر التي لم تقع عليها عيني من قبلُ فمن دكاكين مملوءة ثماراً وفاكهة ومن مخازن مشحونة بالثياب والاقمشة ومن قصور كبيرة شاهقة . وقد علمتُ بعد ذلك ان الاستانة من المدن القديمة القذرة وان في اوربا مدناً كثيرة احدث منها وانظف ولكنني حسبتها حينئذٍ فردوس النعيم

ثم قال لي محمود اننا قربنا من بيت جدتكِ فخفق فؤادي وتجدّدت مخاوفي وكان ابي قد توفي حديثاً وهو حدّاد فقير من اهالي الاناطول ولم يترك لي شيئاً . وقبل ان اسلم روحهُ تذكر ان حماتهُ لا تزال في قيد الحياة ولم يكن قد رآها بعد ان اخذ ابنتها واتى بها الى تلك القرية حيث ماتت بالفقر والحاجة فطلب من الفقيه معلم الاولاد ان يكتب لها كتاباً و يطلب منها ان تأخذني لاقيم عندها وعنون الكتاب الى بيت الباشا الذي كانت عندهُ مرضعاً لاولادهِ . ومضت اربعة اشهر قبلما جاء الجواب منها وكان ابي قد مات واخذني جارنا الى بيتهِ واخيراً جاء رجل الى قريتنا قال انهُ رسول من فاطمة خانم وهو اسم جدتي ولما بلغني ذلك اسرعت لاراهُ فوجدت انهُ شيخ كبير السن شائب الشعر بشوشُ الوجه وسمعتهُ يقول

" مضى عليها زمان طويل في بيت الباشا وهي متكبرة على نوع ما ولكن قلبها طيب ولما وصلها مكتوب صهرها اخذت تبحث عن رجل يحضر لها بنت بنتها و بلغها انني آتٍ الى قونية لاشغال لي فيها فطلبت مني آن اتيها بها في رجوعي . وقد تأخرت في قونية اكثر مما كنت اظن" . ثم التفت اليَّ وقال اهذه هي البنت . فقيل لهُ نعم فقال " تعالي بابنتي" ومسكني بيدي ونظر في وجهي طويلاً وقال لا بد انكِ تعجبينها مع انهُ لا يعجبها احد . واخذ يتكلم على هذا النسق حتى خوّفني منها وصرتُ أتمنى ان ابقى حيث كنت . وقام في اليوم التالي وجاء بي ولم يحدث في اثناء الطريق ما اخّرنا عن الوصول . واخيراً وصلنا الى بيتها ووقفنا امام بابها وانا اتمنى ان لا تكون في البيت ولكن خاب أملي لما فُتح الباب واتت خادمة وسارت بنا الى الطبقة العليا وادخلتنا غرفة فيها مقعدان وبساط وعلى احد المقعدين عجوز على رأسها منديل ابيض فلما دخلنا نهضت وسلمت على محمود ونظرت اليَّ وقالت أهذه هي البنت . وضمتني الى صدرها وجعلت تبكي

ثم التفتت الى الرجل وقالت لهُ "لا تضحك عليَّ لانني امرأة عجوز وقد مات اولادي كلهم

ولم يبقَ لي الاَّ هذه البنت وهي مثل امها تماماً واراها الآن كأني ارى امها "

وكان عمري حينئذٍ اثني عشرة سنة وكنتُ شديدة الشعور بمصاب الغير فلما سمعتها تقول هذا الكلام وضعتُ ذراعيَّ حول عنقها وجعلت اقبلها وابكي فضمتني الى صدرها ثانيةً وقالت سنحبينني كما احبكِ. ثم التفتت الى محمود وقالت لهُ تفضَّل اجلس يامحمود اغا لكي تشرب فنجان قهوة. وناولتني سيجارة وقالت لي قدميها لهُ يا امينة. ونهضتُ وحركت النار في المنقل ووضعت غلاَّية القهوة عليها والتفتت اليهِ وقالت لهُ كلهم بخير في بيتكم وقد كنت عندكم امس وجاء مكتوب من ابنك يقول فيهِ ان معلمهُ الجديد مسرور بهِ

فقال بلا شك لانهُ في بيت صهرهِ

فقالت نعم وقد احسنت بارسالهِ اليهِ وصهرك من احسن الناس

فقال نعم الحق بيدك وكيف حال نصرالله باشا واولادهِ

فقالت كلهم بخير ولكن نافذ بك مضى الى الاناطول

فقال هذا مثل ولدك لانك ارضعتهِ

فنظرت اليهِ باسمةً وقالت نعم وهو من احسن الشبان وقد صار عمرهُ الآن ثلاثاً وعشرين سنة واخوهُ البكر ادهم بك صار عمرهُ ثلاثاً وثلاثين سنة وهو اول ولد ارضعتهُ . ولما تزوجت ابنتهم الصغرى وحيدة هانم سمحوا لي ان اسكن وحدي هنا . لما كان زوجي حيًّا كنت اقول انهُ حالما يكبر نافذ بك ويمضي الى الكتَّاب اتركهم واقيم في بيتي ولكن لما مات زوجي وتزوجت بنتي وتوظف ابني في مركب من مراكب العزيزية طلبوا مني ان ابقى في بيتهم فبقيت ثم لما صار عمر نافذ بك خمس عشرة سنة طلبتُ منهم ان يسمحوا لي ان اعود الى بيتي واعتني بابني لكن واحسرتاه مات ابني تلك السنة

فقال محمود بعد ان شرب القهوة نعم ولكني اراكِ تقيمين في بيت الباشا اكثر مما تقيمين هنا

فقالت نعم ولو اردت لبقيت عندهم دائماً ولكنني صرت عجوزاً وافضل ان ابقى وحدي في بيتي

وكانا يتكلمان وانا اسمع وقد ارتفعت منزلة جدتي في عينيَّ لما رأيت انها كانت في بيت باشا وانهم يكومونها ويعزُّونها . وكانت تتكلم كلاماً فصيحا وتشير اشارات الكبراء ورأيت انها تفوق كل النساء اللواتي عرفتهنَّ من قبلُ

ونساء العامة في الاستانة لسن متعلمات اكثر من نساء القرى في بر الاناطول ولم تكن جدتي تعرف القراءة ولكن اتصالها بالطبقة العليا من الناس زماناً طويلاً هذَّب اخلاقها وجعلها تتكلم وتتصرَّف مثل افراد تلك الطبقة

ثم قالت " سآخذ امينة غداً الى بيت الباشا لان الهانم سألت عنها مراراً فترى كم تشبه امها " . ونهض محمود ليذهب فقالت لهُ على مَ انت مستعجل فقال لانني لم اذهب الى بيتي حتى الآن . فشكرتهُ على فضلهِ وودعنا وخرج . وقمت الى الشباك واطللت منهُ على الشارع الذي تحتهُ فاذا هو ضيق منعطف ثم رأيت الرجل يقرع باباً فيهِ فاذا بيتهُ بقرب بيت جدتي . ودنت جدتي مني وقالت لي لم اسمع كلامكِ حتى الآن تعالي اخبريني ما تعلمينهُ عن ابيكِ وامكِ . فجلست الى جانبها وجعلت اقص عليها كل ما اتذكرهُ وكيف لدغت افعى امي وهي تنزع الاعشاب من البستان وكيف كان ابي يتعب النهار كلهُ فلا يكاد يحصل القوت الضروري

فقالت يا مسكين كان يحب امكِ كثيراً ولكن لماذا لم يرسلكِ اليَّ قبل الآن . وقد عرض عليهِ الباشا ان يفتح لهُ دكاناً في غلطه هنا فلم يقبل لانهُ يفضل عيشة الجبال على عيشة المدن . ولم اكن اريد ان تذهب امكِ معهُ ولكنها كانت عنيدة وتخاصمنا ومضت مع زوجها ثم ندمتُ على ما فرط مني وكتبت اليها فلم يجبني احد ولا كنت اعرف اين انتم ومنذ سنتين اتاني مكتوب من ابيكِ ينعيها اليَّ ولكنهُ لم يذكر لي كلمة عنكِ

فقلت لها ان ابي كان يحبني لانني اشبه امي ولم يكن يريد ان يفارقني . فقالت نعم انك تشبهينها تماماً عيناك زرقاوان مثل عينيها وشعركِ اشقر مثل شعرها . وسترين اني احبكِ كما كان يحبكِ

ولقد صدقت في قولها لانها على شكاسة طبعها لم ارَ منها الاَّ كل حب وكل دعة . وذهبنا الى بيت الباشا وكنا نقيم فيهِ احياناً شهراً او اكثر . والباشا رجل جليل القدر عظيم الشأن اعتزل المناصب العالية في كهولتهِ لانهُ يفضل الراحة على تعب البال وبقيت كلمتهُ مسموعة في دوائر الحكومة فخصَّل المناصب العالية لاولادهِ واصهارهِ . وكانت زوجتهُ على جانب كبير من الكبر والعظمة كثيرة الكرم شديدة الانتقام اذا رأت من احد حسنة جازتهُ عليها احسن جزاء واذا رأت من احد سيئة انتقمت منهُ اشد الانتقام . وهي تركية الاصل عرفت كيف تتسلط على زوجها حتى لم يتزوج ضرَّة عليها . وكانت شديدة النباهة يخشاها كل اهل البيت حتى اولادها وهم يطيعونها طاعة عمياء . ولا تزال صورتها نصب عينيَّ حتى الآن طويلة القامة نحيفة الجسم جميلة المنظر حادَّة البصر تنظر اليك فتظن انها تقرأ اعماق قلبك . تلبس لبساً بسيطاً جداً وتربط رأسها بمنديل ابيض تمكنهُ بدبوس من الماس ولا تتحلى بحلى غيرهُ . لم تعاملني بالقسوة ولكنني كنت اخاف منها كثيراً ولا استطيع الكلام في حضرتها . وابنتها البكر ادهم بك مثلها سكوت كثير الاشتغال واما ابنتها الصغرى واسمها وحيدة فكانت غاية في الانس والبشاشة

وكانت هي وزوجها في بيت ابيها وعمرها عشرون سنة بعينين سوداوين ومحيا طالق وقد احببتها حالما وقع نظري عليها و يظهر لي انها هي احبتني ايضاً وقد اهتمت بتعليمي في مدرسة قريبة من بيت ابيها وعلمتني التطريز بيدها . وكان للباشا ابنة اخرى كانت حينئذٍ غائبة مع زوجها . اما الابن الاصغر نافذ بك فكان في الاناطول مع الابيه والظاهر انهُ محبوب جدًّا من كل اهل البيت حتى ان ادهم بك كان يتبسم كلما ذكر اسم اخيهِ مع انهُ كان عابساً في غالب الاحيان وزوجتهُ واسمها وليَّة هانم كانت تذكر اسم نافذ بك دواماً وتقول انهُ روح البيت ومنذ غاب فقدوا كل بهجة(وهي امرأة بشوشة الوجه انيسة المحضر اقترن بها ادهم بك وعمرها اربع عشرة سنة ولما الآن ثلاثة اولاد مع ان عمرها تسع عشرة سنة فقط). واذا ذكرتهُ امهُ لم تخفِ حبها لهُ وعجبها بهِ وكذلك الجواري كنَّ يحلفن باسمهِ حتى صرت اودُّ ان اراهُ ولكن مضت خمس سنوات قبلما عاد الالاي الذي هو فيهِ

وليس من غرضي ان اسرد تاريخ حياتي كلها بل تاريخ مدة محدودة منها ولذلك لا اتكلم شيئاً عن هذه السنوات الخمس بل اتخطاها الى شهر مارس من السنة الخامسة منها فانهُ في ذلك الشهر اصابتني مصيبة لا اشد منها وهي ان جدتي مرضت مرضاً شديداً واضطرت ان تعود الى بيتها واعود انا معها وقالت لي حينئذٍ انها تحب بيت الباشا كثيراً ولكنها لا تريد ان تخرج جنازتها منهُ كانها جارية من جواريهِ بل تود ان تموت في بيتها .ولما رأت الدموع في عينيَّ قالت لي لا تبكي يا حبيبتي فان الله كريم ولا بدَّ من ان يأخذكِ الباشا الى بيتهِ ولا يتركك وحدكِ . ولما رأت الدموع زادت هطولاً من عينيَّ وخنقتني الزفرات قالت لي ما ادرانا ان الله لا يمن عليَّ بالشفاء وانا لا اعتقد بهؤلاء الاطباء ولكنني اعتقد بانسان حكيم اسمهُ الشيخ موسى فاذهبي الى بيت جارنا محمود وقولي لزوجتهِ حميدة لتدلكِ على بيت هذا الشيخ فان كان الله كتب لي الحياة فلا بدَّ من ان اشفى على يدهِ

فسررت بذلك لانني طالما سمعت ان المشايخ الصلاَّح يشفون كل من كتب لهُ الله الشفاء واما من سقطت ورقتهُ من شجرة الحياة فلا يشفيهِ الاطباء ولا الصلاَّح . والشيخ يعرف ذلك فاذا كان لا امل بالشفاء لا يقبل مني نقوداً. فمضت حميدة معي الى بيت الشيخ ولاقتنا زوجتهُ عند الباب وسارت بنا اليهِ فرأيتهُ جالساً على حصير والسبحة في يدهِ فلم يلتفت الينا فقالت لي حميدة ان اعطيهُ الدراهم التي اتيتهُ بها فاعطيتها لزوجتهِ فوضعتها تحت طرف الحصير وللحال رفع رأسهُ وقال "كبرنا في السن ولكن الشجرة لا تقع حالما تصيبها الفاس قم يا عبدي وانا اقوم معك"

فلم افهم شيئاً مما قال ولكن حميدة اسرَّت في اذني قائلة ان جدتك ستشق ثم قالت لهُ ماذا تأمرنا ان نعمل لها فقال ايتوني بمنديلها وليرتين

فسرَّت حميدة بذلك ووضعت لهُ عرشاً تحت الحصير وطلبت منهُ ان يخبرنا عن بختي فقال "هذه وردة مزهرة ولكن ستعصف بها الرياح" وعاد الى سجيتهِ ولم يلتفت الينا فعدنا من حيث اتينا وانا افكر في كلامهِ ولا افقه لهُ معنًى وكان عمري حينئذٍ سبع عشرة سنة وكنت انظر الى المستقبل نظر من تنتظر السعادة فيهِ لكن كلامهُ لم يكن حسب انتظاري . ولما اخبرنا جدتي بما قال هزَّت رأسها ولم تقُل شيئاً ولكنها بقيت النهار كلهُ تنظر اليَّ . وارسلنا اليهِ المنديل والدراهم التي طلبها فجاء الينا بنفسهِ ونفخ في وجه جدتي واعطانا بخوراً لنحرق منهُ كل ليلة قبل الغروب وقنينة فيها شيء كعطر الورد فاعطتهُ جدتي خمس ليرات وليرتين اخريين لكي يكتب لي حجاباً من العين

ولم ينجع العلاج في جدتي واشتدَّ المرض عليها مدة ثلاثة ايام حتى لم تذق طعم الراحة ثم صلحت حالها قليلاً واتت حميدة لعيادتها فطلبت مني ان امضي وانام في غرفة مجاورة لغرفتها فمضيت ولكن انشغال بالي عليها حرم جفني النوم وبينما انا اطلب من الله ان يمن عليها بالشفاء سمعت حميدة تذكر اسمي فانتبهت واذا هي تقول ان كلام الشيخ موسى عن امينة مستغرب جدًّا ولا اعلم ما هو مرادهُ

فقالت جدتي يا ولدي الله يكون معها ويقيها ولولا يقيني ان الهانم تأخذها الى السراي لكنت اموت في اشد القلق

فقالت لها حميدة انكِ غير فقيرة وستتركين لها ما يكفي لاعالتها

فقالت نعم ولكن المال وحدهُ لا يكفي ولاسيما لمن كانت صغيرة وحيدة مثلها

فقالت حميدة لا تظني انها تكون وحيدة فانهُ ما دمت انا وزوجي في قيد الحياة فنحن نعتني بها وان شئتِ فعندنا من يعتني بها بعدنا

ثم سمعتها ادنت كرسيها من سرير جدتي وقالت لها ان امينة جميلة المنظر وحسنة الطباع ولا تستنكف من الشغل اعطيها لابني وسيكون هنا بعد اسبوع على الاكثر وهو الآن في بورصة وقد وعدهُ صهري ان يورثهُ بيتهُ لان ليس لهُ ولد وانا احبها مثل بنتي وزوجي يحبها ويعبدها عبادة

فلم تجبها جدتي في اول الامر مع انني انتظرت جوابها بقلب خافق واخيراً سمعتها تقول كل شيء بقضاء وقدر ولا يمكن ان احكم قبلما ارى داود فاني لم ارهُ منذ خمس سنوات فلا يمكنني

ان اجيبك الآن لا سلباً ولا ايجاباً . حينما يأتي ارسليو اليّ وان كان لم يزل كما اعهده فلا مانع عندي وعسى ان ابقى حية لارى عرسهما

فقالت حميدة ان شاء الله وداود شاب تجتهد جدًّا ولا بد من ان يجيبك

فلم تجاوبها جدتي لانهُ اصابتها نوبة سعال وقمت لاعطيها دواءها مسكتًا وانقطع الحديث . لكنني بقيت افكّر فيهِ ذلك اليوم واليوم التالي وانا عالمة انني لا اقدر ان احل ولا اربط بل الذي تقررهُ جدتي التزم ان اقبل بهِ مهما كان الامر هامًّا عندي . وكثيرًا ما كنت اطلّ من الشباك والتفت الى بيت جارنا لعلي ارى هذا الشاب ولكن مضت ستة ايام ولم يحضر واشتدَّ المرض على جدتي فصرفت هذا الموضوع من ذهني . وفي اليوم السابع سمعت دقًّا على الباب فقالت لي جدتي "افتحي يا حبيبتي لابدَّ من ان يكون هذا واحدًا من السراي لان خدم الباشا يأتون كل يوم لعيادتها فقمت وشددت بالحبل الذي يفتح الباب وقلبي يخفق خاسبةً اني ارى امامي ابن جارتنا ولما سمعت وقع الخطى على السلّم رجعت وقلت لجدتي انهُ رجلٌ فقالت هذا داود لقد احسن بمجيئهِ الآن اتركيني وحدي معهُ . فدرت لاخرج قبل دخولهِ واذا انا بشاب لابس لبس ضباط الجيش وللحال انهضت جدتي رأسها وصرخت "نافذ بك ابني حبيبي الله يحفظك " ثم وضعت يديها حول عنقهِ وقبلتهُ

فجلس بجانب سريرها وقال لقد رجعتُ امس ولما اخبروني انكِ مريضة قلت ان اول واجب عليَّ هو ان اراكِ

فقالت " الله يحفظك ياحبيبي الله يكون معك لقد غمرتني بمعروفك لانك اتيت لاراك قبل موتي "

فقال " بعد عمر طويل يا جدتي (١) ان شاء الله ترضعين اولادي كما ارضعتي هذه ابنة بنتكِ التي اخبرتني عنها امي "

اما انا فكنت واقفةً كالصنم انظر اليهِ واعجب من لطفهِ وتنازلهِ الى هذا الحد . وكان يتكلّم باشًّا مسرورًا كأنهُ لم يفعل شيئًا غير عادي بمجيئهِ الى هذا البيت الحقير وعجبت من شدة مشابهتهِ لابيهِ فانهُ كان مثلهُ اشهل العينين خفيف العارضين واسع الفم عريض الذقن واضح المحيا

والتفتت جدتي اليَّ وقالت لي تعالي يا امينة وقبلي يد ابن سيدنا .

فدنوت منهُ وانا مطرقة الى الارض خجلاً . فنظر اليَّ مليًّا وقال ما اجملها ولم يشأ ان يعطيني يدهُ لاقبلها بل قال نحن اصحاب يا امينة لاننا كلينا اولاد الدادا . والتفت الى جدتي

(١) الدادا كلمة تركية مستعملة في مصر معناها المرضع

وقال ان امينة ملكت قلوب الكل في البيت فان وحيدة وولية وامي يتكلمن عنها بالمدح والاطراء حتى ادهم نفسهُ يذكرها بالمدح

فاستغربتُ كلامهُ جدًّا ولا سيما ما قالهُ عن ادهم بك لانني كنت اراهُ مشغولاً جدًّا لا يلتفت الى احد ولم يخطر ببالي حينئذٍ انهُ يكون اكبر عضد لي في وقت الضيق

فتبسمت جدتي وقالت الله يسعدهم لقد غمرونا كلهم بمعروفهم . ولكن هات اخبرني عنك يا حبيبي كيف كان حالك في الاناطول وماذا كنت تفعل هناك

فضحك وقال لم اكن افعل شيئًا لا انا ولا الحامية كلها بل كانت عيشتنا كلها كسلاً بكسل في تلك القلعة ولذلك كنت اتمنى دائمًا ان اعود الى البيت . وقد طفنا في كل بلاد الاناطول وقابلت عزّت باشا وقد صار واليًا بدل ابيهِ بمساعي ابي

فقالت جدتي وهل رأيت سنيَّة هانم

فقال كلاَّ لان صهري لم يعين للولاية الاَّ بعد رجوعي . والآن لا بدَّ لي من الذهاب الى السر عسكرية وسأعين هناك قريبًا

فقالت جدتي أصحيح ذلك هذا خبر يسرني جدًّا

فقال نعم لان العيشة في القلاع موت احمر . ثم ودَّعها وقام ليخرج وتبعتهُ لاشيعهُ الى الباب حتى اذا وصل الى اعلى السلم قلت لهُ عن غير قصد اتظن حقيقة ان لا خطر على جدتي او قلت ذلك لكي تسكن روعها

فنظر اليَّ صامتًا ووضع يدهُ على رأسي وكأن لسان حالهِ يقول لا امل بشفائها فنهضت مرادهُ من غير ان يفصح عنهُ بالكلام ولما خرج دخلت الى غرفتي وانطرحت على الارض وجعلت ابكي من كبدٍ حرَّى

وتكلمت جدتي كثيرًا تلك الليلة عن نصر الله باشا وعائلتهِ واخبرتني ان اباها كان قابيجيًّا لعائلة هانم افندي وزوجها كان قابيجيًّا ايضًا ولما ولد ولدها الاول عرضت عليها هانم افندي ان ترضع اولادها فاقامت عندها من ذلك الحين. ثم طلبت مني ان اعدها بأني لا اخالف امرًا لهانم افندي مطلقًا فوعدتها بذلك وانا ابكي واذرف العبرات فقبلتني وقالت لي لقد حان الاجل بابنتي ولا بدَّ من ان تعلمي ما هي وصيتي الاخيرة لكِ . اذهبي الى السراي وابقي هناك وهانم افندي تهتمُّ بكِ وبمستقبلكِ وما دمتِ تحت حمايتها فأنتِ بأمن من كل ضيم ولكن يجب ان لا تغيظيها بشيء . اواه كم اود ان يحضر داود الآن قبل وقاتي لانني لا استطيع ان اسلم بطلب امهِ يا لم انظرهُ بعيني

وصمتت برهة ثم قالت " اني اشعر بتعب شديد يا امينة فنادي لي حميدة لتبقى معي الليلة فخرجتُ وارسلت اطلب حميدة ولما حضرتْ كان لسان جدتي قد انعقد عن الكلام وقبل الصباح اسلمت الروح فعدتُ يتيمة كما كنتُ

ويتعذّر عليّ ان اصف ما حلّ بي حينئذٍ فان موتها وقع عليّ كصاعقة من السماء لكني تجلدتُ قليلاً ونهضت لعلي افعل شيئًا مما يلزم لغسلها ودفنها وجاء العبيد من بيت الباشا حالاً واخذوا يجهزون كل ما يلزم لذلك ونزلتُ الى المطبخ لاشعل النار فوضعت ذراعي على حافة الشباك وغطيت وجهي بكفي واعولت في البكاء وبقيت على ذلك الى ان شعرت بيد على كتفي وقائل يقول " يا مسكينة أانت هنا اين البنات لماذا تركتكِ وحدكِ ". فالتفتُّ والفانا بنافذ بك واقفًا امامي فلم يرفع يدهُ عن كتفي بل ادنى مني كرسيًا بيدهِ الاخرى اجلسني عليه وكان شعري قد انحلّ وانسدل على وجهي فازاحهُ بيدهِ وللحال فاضت الدموع من عيني فغطيت وجهي بيديّ وعدت الى البكاء . اما هو فوقف امامي صامتًا ثم امسك يديّ بيديهِ وقال لي لا امنعكِ عن البكاء يا امينة لأني اعرف ان البكاء نافع لكِ ولكن تعالي الى غرفة اخرى اذ لا بدَّ من مجيئهم الى هنا بعد خمس دقائق

ففهمتُ مرادهُ لانهم كانوا عادتين ان يغسلوا جدتي هناك والتفت الى الموقد فوجدت النار مطفأة فنهضت حالاً ومسكت قطعة حطب لاشعلها لكن الدموع اعمت عينيّ وللحال سمعت صوت تلامذة المدارس ينشدون نشيد الغسل فاتكأت على الحائط خائرة القوى

والتفت نافذ بك الى احدى الجواري وقال لها " اهتمي انتِ بتسخين الماء يا بوار " ثم دار اليّ وقال " وانتِ يا عزيزتي اعطي المفاتيح لبوار وتعالي معي . ما هذا أانتِ جاثية أوقفتِ حافية هنا من الصباح . تعالي اين غرفتك تعالي البسي اذ لا بدَّ لكِ من الذهاب الى بيتنا حالاً "

فلم اجبهُ بشيء لان الضعف كان قد اخذ مني كل مأخذ حتى فقدت ارادتي فتبعتهُ الى باب غرفتي ووقف هناك ونادى جارية اخرى وقال لها ساعديها يا ماهور لكي تلبس ثيابها والتفت اليّ ووضع يدهُ على شعري بلطف وقال سأراكِ اليوم في بيتنا. قال ذلك ونزل ودخلت الغرفة مع الجارية ولم اكد اتم لبس ثيابي حتى سمعت صوت الرجال الذين اتوا ليأخذوا النعش ودخل الجواري الى غرفتي ليرين الجنازة وامسكت حميدة بيدي وسارت بي الى الشباك وهي تقول التفتي اليها فان روحها الآن عند رأس النعش وهي تودُّ ان تراكِ آخر مرة واقفة لتشيعها . ثم قالت لي بصوت منخفض انظري انظري فان نافذ بك ماشٍ في الجنازة ما اوضعهُ والذي

بجانبه ابني داود . فنظرت مكرهةً لانني لم اعد افكر بابنها فرأيته عريض المنكبين قصير القامة

وفعل نصرالله باشا اكثر مما يطلب منهُ فاخرج الجنازة على نفقته وغطّى النعش بشال من الكشمير الابيض ومشى العبيد امامهُ ببواخر الفضة وامامهم جمع غفير من المشايخ وتلامذة المدارس . الاّ ان منظر النعش ورائحة البخور وصوت المشايخ والتلامذة كل ذلك اثر في نفسي تأثيرًا شديدًا وكنت خائرة القوى من السهر والحزن فطنّت اذناي وغبت عن الصواب وهذه اول مرة أُصبت فيها بالاغماء . ولما افقت وجدت نفسي على الديوان ورأسي متكئ على كتف وحيدة هانم فقالت لما رأتني فتحت عيني لقد احسن نافذ باستدعائي الى هنا فان هذا فوق طاقتها . قومي ياحبيبتي فقد امسى المساء ولا بدَّ لنا من الرجوع الى البيت قبل لارتب يشمكك والتيها يا ماهور بكاس ماء

فنظرتُ الى وحيدة هانم واذا عيناها مغرورقتان بالدموع فوضعت اليشمك على رأسي وقبلتني من صميم قلبها فلصقتُ بها كأني احسب انها الملجأ الوحيد لي وقامت وسارت بي الى الباب وهي ماسكة بيدي وقالت " تعالي معي وحميده وبوار تبقيان هنا مع المشايخ " . فاتكأت عليها ونزلت معها الى الباب ودخلنا المركبة فسارت بنا ودنا انطبق كتاب الماضي وانفتح كتاب المستقبل

ستأتي البقية

باب تدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيهِ كل ما يهم اهل البيت معرفتهُ من تربية الاولاد وتدبير الطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وغير ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

الاعتناء بالاطفال

تمهيد

هذا موضوع لا نوفيهِ حقَّهُ مهما كرَّرنا الكلام فيهِ ولاسيما في هذا القطر وفي هذه العاصمة حيث يموت ثلاثة ارباع الاطفال قبلما يبلغون السنة الخامسة من عمرهم . والبلدان التي تفوق بلادنا في معرفة التدابير الصحية والعمل بها لا يموت الاّ ثلث اطفالها قبل السنة الخامسة

ويولد الاطفال اصحّاء سليمين لا علة فيهم واذا اعتُني بهم الاعتناء الواجب عاشوا كلهم على